

التفكيكية

Deconstruction

مليكة بوجفجوف

¹ جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل (الجزائر)

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تقديم بطاقة تعريفية بالنظرية التفكيكية في الفكر والأدب، وذلك من خلال تحديد المنطلقات المعرفية والفلسفية لهذه النظرية أولاً، ثمَّ عرض مختلف المقولات النظرية و/الإجرائية التي تتركز عليها ثانياً. ويتعلّق الأمر بتحديد مفهوم "التفكيك" بدايةً، ثمَّ شرح "الإستراتيجية التفكيكية" في تعاملها مع التصوُّص فكرية كانت أم أدبية، من خلال مقولة "تفكيك المركز" و"هدم سلطة المتعالي"، وضحد مقولة "الحضور الثابت والمطلق" لتحلَّ محلَّها مقولات "الاختلاف" و"الإرجاء" (التأجيل)، وبحلَّ "الغياب" محلَّ "الحضور" مع بقاء "الأثر". هذا الأخير هو بوصله القارئ أثناء الغوص في عوالم النص، والبحث في ترسُّباته الفكرية و/الثقافية، وتفكيك شبكة العلاقات التي تقيمها "اللغة" عبر "بنيتها المجازية" مع نصوص و/مجازات سابقة عنها، وأخرى لاحقة.

الكلمات المفتاحية: التفكيك، الخلفية الفلسفية، الاختلاف، الإرجاء، الحضور والغياب، الأثر

Abstract:

This research paper seeks to provide an introduction to the deconstructive thought and literature theory. First by defining the cognitive and philosophical starting points of this theory, then presenting the various theoretical and procedural categories on which it is based. Second, the latter is the reader's compass while diving into the worlds of the text, researching its intellectual and cultural deposits, and dismantling the network of relationships that "language" establishes through its "metaphorical structure" with previous texts and metaphors, and others that follow it. the matter is related to defining the concept of "deconstruction" initially, then explaining the "deconstructive strategy" in dealing with texts, whether intellectual or literary, through the saying "dismantling the center" and "demolishing the authority of the transcendent," and contradicting the saying "fixed and absolute presence," replacing it with the sayings of "Difference" and "deferral" (postponement), and "absence" replaces "presence" while the "trace" remains. The latter is the reader's compass while diving into the text worlds, researching its intellectual and cultural deposits, and dismantling the network of relationships that "language" establishes through its "metaphorical structure" with previous texts and metaphors, and others that follow it

Keywords: Deconstruction, Philosophical Background, Difference, Postponement, Presence and Absence, Impact

مقدمة:

التفكيكية، أو التقويضية، أو التشريرية، كلها ترجمات عربية لمصطلح واحد هو (La Deconstruction) في إشارة إلى تلك النظرية التي شاعت عن الفيلسوف الفرنسي "جاك دريدا" (Jacques Derrida)، وهي نظرية فلسفية في الأساس، تهدف -من حيث المطلق- إلى هدم وتقويض متعاليات وثوابت العقل و/الفكر الغربي؛ خاصة بعد أن اكتسحت النظرية البنيوية -بنموذجها السكوني المغلق- سائر حقول المعرفة الإنسانية، وبهذا تنتسب التفكيكية زمناً إلى مرحلة ما بعد البنيوية.

تحاول هذه الورقة البحثية -إذن- إمطة اللثام عن فحوى هذه النظرية، من خلال البحث في المرجعيات الفكرية و الفلسفية لهذه النظرية أولاً، ثم تقديم قراءة موجزة في مختلف الطروحات التي تقدمها التفكيكية من أجل الخروج من المأزق الفكري و/النقدي الذي أسفرت عنه الدراسات البنيوية، بعد أن وصلت الدراسات المعاصرة إلى طريق مسدود.

1- الخلفية الإستيمولوجية والمرجعية الفلسفية للتفكيكية:

في البداية تجدر الإشارة إلى أن التفكيكية قد نشأت في خضم دورة جديدة للشك الفلسفي الذي خيم على الحياة الغربية، في جوانبها المعرفية، فبعد أن شكك الفيلسوف الألماني المثالي "إيمانويل كانط" (Immanuel Kant) في تجريبية القرن التاسع عشر، وقدرتها على تحقيق اليقين المعرفي، وإقراره لسلطة العقل، بمقولاته الميتافيزيقية العليا في ميادين المعرفة، وبعد أن رجحت الكفة مرة أخرى لصالح العلم والتكنولوجيا، وازدهرت "البنيوية" كمنهج جديد في الدراسات النقدية والأدبية، يهدف إلى تحقيق علمية النقد والأدب في آن. ورغم الزواج الكبير الذي لقيته في الفكر الأوروبي، وامتداد تأثيرها إلى ميادين معرفية متنوعة كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها...، حيث توسّلت جميعها النموذج اللغوي كمنطلق أساس لجل أبحاثها، سعيًا وراء الموضوعية وتحقيق الصرامة العلمية.

غير أنه، وبعد الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الثانية في أوروبا واليابان بعد كارثة "هيروشيما" و"نكازاكي" النووية، ثم -وعلى الصعيد المعرفي- فشل المشروع البنيوي في تحقيق ظواهر المعنى على الصعيد الأدبي النقدي، وعلى الصعيد العام «فقدت الدراسات المختلفة خصوصيتها وتوهجها، وظلت أسيرة النموذج اللغوي، ووقعت في مأزق الوصفية، والمعارية الجامدة، وأصبحت نتائج التحليل فيها تتطابق مهما اختلفت حقولها، بسبب اعتمادها نموذجاً واحداً مسبقاً»¹، وهذه الحقائق تأتي في سياقها للتأكيد أن الحركة النقدية غير منفصلة عن السياق الحضاري-التاريخي العام بتجلياته المختلفة؛ السياسية والاجتماعية والمعرفية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، شمولية موجة الشكل الجديد، كما

تجسّد ذلك فيما بعد في فكر "دريدا" الذي يسعى إلى تقويض مقولات الميتافيزيقيا الغربية على جميع الأصعدة، إنّه إحساس بالخدعة، واستحالة المعرفة على حدّ تعبير "عبد العزيز حمودة"، « شك نتشوّ مقض وفوضوي، ما هي الحقيقة إذن! مجموعة متحركة من المجازات والتشبيهات، باختصار هي تلخيص للعلاقات الإنسانية، ثم دعمها ونقلها وتحميلها شعريا وبلاغيا، علاقات بدت للناس بعد فترة استخدام طويلة ثابتة ومعيارية وإجبارية، الحقائق أوهام نسي الناس أنّها كذلك، مجازات تأكلت من طول الاستعمال».²

وهكذا يعد "نيتشه" (Friedrick Nietzsche) ورؤيته للحقيقة، أو فلسفة المجاز عنه أحد المنطلقات الأساسية لأفكار "دريدا" التفكيكية، وكذا العالم النفسي الكبير "سيغمون فرويد" (Sigmund Freud)، و"هايدجر" (Martin Heidegger) في فلسفته الميرمينوطيقية ويبدو أن تأثير هذا الأخير كان أبلغ وأكثر جلاء، وهو ما يعترف به رائد التفكيك نفسه "جاك دريدا" الذي يقول (حسب ما هو وارد في كتاب "معرفة الآخر"): «إن ديني لهيدغر هو من الكبير، بحيث أنه يصعب أن نقوم بجرده هنا، والتحدث عنه بمفردات تقويمية أو كمية، أوجز المسألة بالقول إنه من قرع نواقيس نهاية الميتافيزيقيا"، وعلمنا أن نسلك معها سلوكا إستراتيجيا، يقوم على التموضع داخل الظاهرة وتوجيه ضربات متوالية لها من الداخل».³

فالكينونة، وتدمير التاريخ / تدمير الميتافيزيقا، الحضور والغياب، وهي الأفكار التي نادى بها "هيدجر" هي في الأساس من أبرز مرتكزات النظرية التفكيكية.

كما تبرز كذلك الإستراتيجية التفكيكية التي أخذها "دريدا" عن "هيدجر" والتي تعتمد أساسا على تفحص الخطابات الفلسفية والنقدية من الداخل، والبحث عن نقاط الضعف فيها أو مناطق التعارض داخلها، ثم تأتي عملية الهدم والتفكيك والتي تنبعث من داخل الخطابات ذاتها.

ولا يتّسع المجال هنا لتفصيل مظاهر ذلك التأثير أو التفاعل بين "دريدا" وأسلافه الفكريين (نيتشه، فرويد، وهايدجر)؛ لأن ذلك سيتضح لاحقا في الحديث عن المقولات الإستراتيجية في "التفكيك".

والحقيقة التي يجب التأكيد عليها في الأخير هي أن "جاك دريدا" استفاد من كلّ ما توصلت إليه المعرفة الإنسانية في ذلك العصر، وفي العصور التي سبقتة من فلسفة، ونقد ودراسات لغوية، فقد أخذ عن "هوسرل" و "جدامرا"، كما استفاد مما أفرزه النقد الجديد والبنويّة من أبحاث، وكذا تيارات ما بعد البنويّة من سيميائية ونظرية التلقي خاصة، والتي كانت من الناحية التاريخية سابقة ومساوقة في الوقت ذاته للفكر التفكيكي. وهذا التأثير لا يستوجب الأخذ بالمعنى

المباشر وعلى وجه الضرورة، وإنما المقصود أن "جاك دريدا" أعاد قراءة الفكر الغربي في كليته، والبحث في الفعاليات النظرية التي تحركه أو المتعاليات التي تحكمه، وتفحصها تفحصا ناقدا، لكنه «قائد جديد متسلح برؤية فكرية وتاريخية، وتتميز خطابه حول الأدب والفلسفة بخصوصيتها بين كتابات مشايخه، إذ يستحيل تصنيف نصوصه على وفق الأسس الواضحة التي تتحدد في ضوءها خصائص الخطابات الأكاديمية الحديثة، فهي في الوقت الذي تنطوي فيه تحت ظل الفلسفة، لا تبرح تلقي مزيدا من الأسئلة عن الفكر واللغة والهوية (...) في شكل حوار نقدي مع نصوص قديمة تمتد أسئلتها من أفلاطون إلى هوسرل وهيجر، إذ تبدو معنية بصورة طبيعية بتاريخ الفكر الفلسفي»⁴

2- مفهوم التفكيك:

1 لغة:

التفكيك هو ترجمة للمصطلح الفرنسي (la déconstruction) وهو مشتق من الفعل (Déconstruire) الذي يدلّ على فعل الهدم والتدمير المعاكس لفعل البناء والإنشاء والتشييد construire وهي دلالة مادية. كما أن التدمير قد يشمل نظاما اجتماعيا معنيا (système social)، أو مفهوما ما (d'une notion)، وهو "فك" عن طريق التحليل ما تم بناؤه، تحليل البنية وتدميرها (فك مفهوم ما بمعنى يفقد بنيانه)، وفي اللغة الفرنسية دائما أن اللغة التي لا تنمو (تتطور) تنحل (تندثر) (longue qui s'altère est se) (déconstruire)⁵.

2. اصطلاحاً: رأينا أن التفكيك في معناه اللغوي يفيد معاني «التهديم والتخريب والتشريح، وهي دلالات

تقترب عادة بالأشياء المادية المرئية أو المحسوسة، لكنه من الناحية الاصطلاحية يدلّ على تفكيك الخطابات والنظم الفكرية، وإعادة النظر إليها بحسب عناصرها، والاستغراق فيها وصولاً إلى الإلمام بالبور الأساسية المطمورة فيها»⁶.

فالإستراتيجية* التفكيكية* تقوم على محاورة النصوص ومساءلتها لفضح التناقضات الموجودة داخلها، حين تبدي عجزها عن الإجابة والدفاع عن نفسها، ويؤكد "دريدا" دائما مسألة الداخل، يقول: «إنّ الميتافيزيقيا ليست تحما واضحا ولا دائرة محددة المعالم والمحيط، يمكن أن نخرج منها وتوجّه لها ضربات من هذا (الخارج)، (...) إن المسألة مسألة انتقالات موضوعية، ينتقل السؤال فيها من طبقة معرفية إلى أخرى، من معلم إلى معلم، حتى يتصدّع الكل وهذه العملية هي ما دعوته بالتفكيك»⁷.

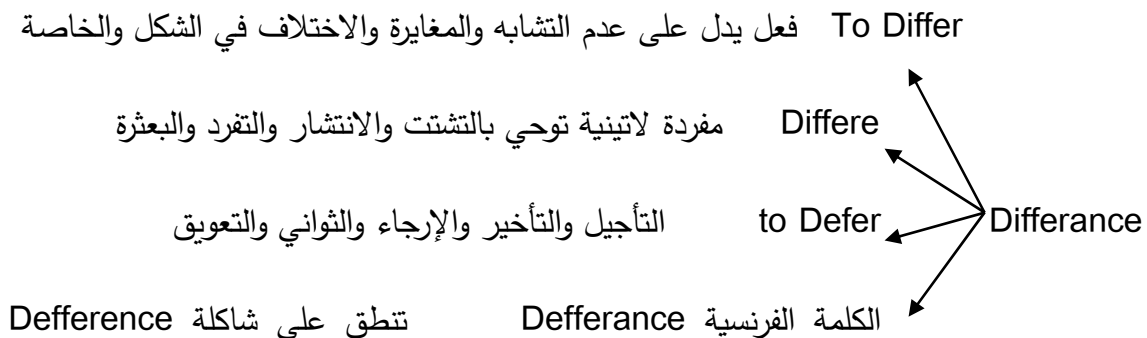
فموضوع التفكيك، وإن كان ينصبّ على النظم العامة للفكر الغربي، أو تفكيك نظم الميتافيزيقيا الغربية من "أفلاطون" و"أرسطو" وصولاً إلى معاصريه من الظاهراتيين أمثال "جادامير" (Hans-Georg Gadamer) و"هوسرل" (Edmund Husserl)، كنوع من الغربة التي تضعف سمك ذلك التراكم الهائل، وتغني مقولة الثبات، أو رفض سكونية العقل الأوروبي من وجهة نظر "دريدا"؛ لكنه في الوقت ذاته نشاط قرائي تأويلي يرى في النص الأدبي والنظرية الأدبية مجالا خصباً لتسديد ضرباته، أو نقول فتح أسئلة المعنى، وتحرير الدلالة من مقولة البنى الثابتة التي أفرزها النقد البنيوي، لتكون التفكيكية من هذه الوجهة نظرية في قراءة وتلقي النص الأدبي.

"وبذلك تحمل معها دليل عموميتها، والبرهان على أنها ليست وليدة لبنية إدراكية معينة".⁸

3 - المقولات الأساسية في التفكيك:

13 الاختلاف (la Différance):

تعدّ من أبرز المقولات التفكيكية، حيث خصص لها "دريدا" بحثاً مستقلاً في كتابه "الصوت والظاهرة" (vois et phénomène)، أو الكلام والظاهرة في بعض الترجمات، والذي نشره سنة 1967م. والكلمة من حيث الاشتقاق اللغوي تأخذ جذوراً متشعبة ترجع إلى الأصول التالية:⁹



الإنجليزية

وهكذا يتضح أنّ معنى الكلمة يقوم على تنويعات دلالية، تتشظى في المكان والزمان، لتتجمع في دلالي الاختلاف والتأجيل. فالتأجيل معناه أنّ معنى الكلمة يتوقّف على مالا تعنيه، وأنّ الأشياء تتحدّد بما هي ليست عليه، فاللون الأحمر مثلاً هو ما ليس أصفرًا، ولا أخضرًا، ولا...، وفيما يتعلّق بالجانب الصوتي النطقي و/ الكتابي، فالفعل قال يقوم بوظيفته البنائية و/ الدلالية عن طريق اختلافه (تميزه) الصوتي عن الأفعال: مال، سال، نال... يقول "فنست ليتش" : « ما هي أهمية الـ Différance؟، لكي تعبّر دالة في لغة ما عن معنى، يجب أن تختلف عن الدلالات الأخرى. ونفس الشيء بالنسبة للمدلول؛ إذ أنّ كل مدلول في نسق لغوي يجب أن يختلف - مهما صغر حجم التضاد- عن كلّ المدلولات الأخرى. إنّ الاختلافات ضرورية لكي تعمل العلامات في اللغة (...) ويوضح سوسير (Ferdinand De Saussure)

(Saussure) الأمر: "إنّ النسق اللغوي عبارة عن سلسلة من اختلافات الصوت ترتبط بسلسلة من اختلافات (المعنى) الأفكار، "إن العلامة في لغة ما تقوم على الاختلافات التي تفصل بين صورتها الصوتية، وفكرتها الجوهرية، وبين الصور والأفكار الجوهرية لكلّ العلامات الأخرى (...) أي علامة هي ما ليست كلّ العلامات الأخرى." ¹⁰

وهكذا يأتي الرّبط بين دلالة الاختلاف وتصور "سوسير" للعلامة ودورها في النسق اللغوي، لكن "دريدا" يطور هذا المفهوم في اتجاه آخر، عن طريق إضافة معنى التأجيل أو الإرجاء، وهو نتيجة ضرورية لهذا الاختلاف؛ فإذا كانت الكلمة لا تدل إلا بما هي ليست هي، فمعنى ذلك أن دلالتها مثبتة في كل العلامات الأخرى التي تشكل النص، وكلّ كلمة تقودنا إلى كلمة أخرى في النظام اللغوي، وهكذا تصبح الدلالة عملاً مؤجلاً باستمرار، بل تحتفي المدلولات بصفة نهائية، ولا يبق هناك إلا حركة ذاتية للدوال في اتجاه دوال أخرى، وليس مدلولات. (وهذه العملية تشبه عملية البحث في معجم - كل كلمة تعرف (تفسر) بكلمات أخرى (دالات) هي بحاجة إلى تحديد، وهكذا دالات تقود إلى دالات أخرى، وكلمات إلى كلمات إلى مالا نهاية، والمعنى هنا يقودنا إلى ثنائية أخرى أو أساس آخر من أسس الفكر التفكيكي، ونقصد به ما يعرف بثنائية الحضور والغياب، أي حضور الدال، وغياب المدلول أو المرجع. وستوضح الفكرة أكثر عند شرح المقولة الموالية (مقولة الصوت-مركزية، أو الكلم-مركزية) .

2.3 الكلم-مركزية (logocentrisme): أو التمرکز حول العقل ¹¹، ولعلّ هذا الاختلاف في الترجمة

يعود من جهة إلى معنى الجذع "logos" ؛ والذي يعني في اليونانية: الكلام، المنطق، والعقل.

ومن جهة أخرى فإن مفهوم المصطلح يؤدي الداليتين معاً، أي مركزية العقل ومركزية الكلمة، والعلاقة بينهما هي علاقة تداخل؛ إذ كلاهما تؤشران على ما يعرف في كتابات دريدا بميتافيزيقيا الحضور، ومؤداها «القول بوجود سلطة أو مركز خارجي يعطي الكلمات والكتابات والأفكار والأنساق معناها، ويؤسس مصداقيتها، اختلفت تسميته عبر العصور، قد يكون الله، وقد يكون العقل، أو الذات، أو النظام العام، إنها سلطة المرجع.

وهذه الفكرة تترجم "ميتافيزيقيا الحضور" في الفكر الغربي (the M-etaphysics of presence) وهو "التعبير الذي وجدته (دريدا) عند "هيدجر"، و يعني به الاعتقاد بوجود مركز centre (وهو ما يعنيه بالحضور) خارج النص أو خارج اللغة، يكفل ويثبت صحة المعنى دون أن يكون هو قابلاً للطعن فيه، أو البحث في حقيقته.¹²

ويمكن أن تترجم الفكرة على نحو ما تجلّت في فكر "هوسرل" الذي كان يقوم «على فرضية أساسية مفادها أن هناك منطقة إدراك فورية في متناول المدرك، ويتمثل أصل كل النظريات الفلسفية وأساسها مفهوم "الحضور"، وفي حالة هاسرل يمثل البحث عن التعبير المطلق أيضاً بحثاً عن ذلك الشيء الذي يتسم بالحضور الفوري، أي وبصفة ضمنية عندما يكون ذلك الشيء حاضراً حضوراً ذاتياً مباشراً لا وساطة فيه، وأيضاً حاضراً بالنسبة لنفسه، يصبح حقيقة مؤكدة لا مجال للشك فيها».¹³

ففي حالة الحدث الكلامي بين متخاطبين حاضرين في الزمان والمكان، أي حوار مباشر ينقل الصوت والصورة معاً، فإن مثل هذا الحوار من شأنه أن ينقل ما هو مقصود تماماً، وكأن المباشرة تقوم بتعريف المعنى. ويعدّ أفلاطون أول من أرسى هذا المبدأ على أبعد تقدير، وينتخب لتجليته حالة الحوار الداخلي الذاتي/ الصامت والذي تكون فيه النفس مدركة تماماً للمعاني التي تختلج في دواخلها، فالحقيقة حسبه هي "حوار الروح الصامت مع النفس"¹⁴. ويمكن أن نفهم هذا على أساس الحضور التام (المركز) للوعي/ العقل، ونقول بإطلاق أن الحقيقة = هنا/ الآن. ولكنه إلى ذلك حضور متعالي، سابق، وحضور جوهر، إنه الدال الأسمى والعلامة تعطي الدلالة لكلّ العلامات الأخرى، إنها أصل الكينونة، ومصدر الوجود.

ولكن كيف يتصور دريدا والتفكيكيون ذلك الحضور؟

يصوّر "جونتان كللر" ذلك الحضور في حركة طيران السهم قائلاً: «إذا كانت الحقيقة هي ما هو حاضر في لحظة بعينها، فإن السهم ينتج مفارقة؛ فالسهم موجود في نقطة معينة في أي لحظة معينة، إنه دائماً في نقطة معينة، وليس في حالة حركة أبداً، ونحن نريد الإصرار على أن السهم في حالة حركة في كلّ لحظة من البداية إلى النهاية، ومع ذلك فإن

حركته ليست حاضرة في أي لحظة حضور يتضح أنه يمكن فقط تصور حضور الحركة بقدر ما تحمل كل لحظة أثارا من الماضي والمستقبل؛ أي أن الحركة يمكن أن تكون حاضرا فقط إذا لم تكن اللحظة الحاضرة معطى given بل نتيجة للعلاقات بين الماضي والمستقبل، يمكن فقط لشيء ما أن يحدث في اللحظة، إذا كانت اللحظة منقسمة بالفعل على نفسها، يتم فيها ما هو غير حاضر.¹⁵

والأمر سيان عند حديثنا عن حضور المعنى في بنية خطابتنا أو كلامنا (اللغة)، فمقولة الاختلاف/ التأجيل، تفكك المقولة الظاهرية لـ "هوسرل" في اعتبار المعنى حضورا تاما، ذلك أن «الدلالة ليست حاضرة بصفة فورية في العلامة، وبما أن دلالة علامة ما تتوقف على مالا تعنيه، فإنها بشكل ما دائما غائبة أيضا من العلامة؛ أي أن الدلالة منثورة أو مشتتة على طول سلسلة الدوال ولا نستطيع أن نثبتها بسهولة، فهي ليست حاضرة حضورا تاما في أي علامة بمفردها، بل هي بالأحرى نوع من الوميض المتواصل بين الحضور والغياب معا؛ أي أن قراءة نص ما أشبه بمتابعة أثر هذا الوميض المتواصل منه، بعد الحبات على سبحة».¹⁶

3.3 علم الكتابة: الغراماتولوجيا (Gramatologie):

يرى "دريدا" أنّ الكتابة أسيء فهمها دائما في تاريخ الفكر الغربي، ومنذ أفلاطون، نتيجة ارتكازه —كما أسلفنا— على ميثافيزيقيا الحضور، ولما كان الكلام الذاتي (عند أفلاطون) أو المباشر (عند هوسرل) يجسّد الحضور الفوري والذاتي للمعنى —وهو ما يقرّ بمركزية الصوت—*، جاء رفض الكتابة على اعتبار غياب المتكلم، وغياب وعيه بالمنطوق، وكأن الكتابة تجسّد غياب المعنى المحدد والمثبت، وإسلام الدلالة للاحتمال، مما يؤدي إلى تعددها وتشتتها، وهو ما من شأنه أن يضع الحقيقة الجوهرية —حسب تصوّر الفلاسفة—، وهي (الكتابة) في أحسن الأحوال منظورا إليها على أساس أنّها تمثيل للمنطوق، وبالتالي تكون العلاقة بينهما هي علاقة تبعية تكون فيها الكتابة في المرتبة الثانية، وهذه الرؤيا أرسى دعائمها "سوسير" حين طرح إشكالية الاختلاف بين المنطوق والتمثيل الخطي له، وهي جهة أخرى على الكتابة.

وهكذا يأتي تفكيك "دريدا" لهذا الرأي مرتكزا على فكرتين أولهما مجازية اللغة، والتي تؤدي إلى رفض الحقيقة، أي ألا وجود لحقيقة ثابتة أو جوهر يمكن أن نخاف عليه الضياع من جراء الكتابة، واستنادا إلى مقولة "نيتشه" بعدم وجود معنى أو دلالة حرفية صحيحة، مماثلة لنفسها، مطابقة لها، إذ يقول: «ما الحقيقة إذا؟ جيش متحرك من الصور المجازية، من الكنايات وخلع الصفات البشرية على الجماد»¹⁷، ذلك أن الفلاسفة في تبليغهم لتلك الأفكار يعتمدون على الحجاج والإقناع متوسّلين الحيل والأدوات الخطائية والبلاغية، وبالتالي أين يكمن المعنى الحرفي؟

يمكن أن تكون الأعمال الأدبية ** في نظر "دريدا" أقلّ توهّما من الخطابات الفلسفية (أو أشكال الخطاب الأخرى التي تدعي العلمية والموضوعية، التي تنكّرت لها الكتابة الأدبية)، لأنّها تعي وضعيتها الخطابية وتقرّر بها؛ وهي الصفة المجازية، وهي صفة جوهرية في اللغة، ولصيقة بها، حتى في تعبيرنا اليومي. في حين أن باقي الخطابات تستعمل اللغة ذاتها بمقوماتها المجازية، دون أن تعي ذلك، أو أنّها تتغاضى عن الاعتراف بها؛ لا أدلّ على ذلك من كوننا «عادة ما نفكر في المنظمات بشكل فضائي أي باستعمال كلمات أعلى وأسفل، ونفكر في النظريات وكأنّها بنايات فنتكلم على الأساس والإطارات وغيرها، و"القاعدة"، و"البنية الفوقية" مفهومان أساسيان في الماركسية».¹⁸

فإذا اعتبرنا أن المعرفة مهما تعدّدت حقولها، هي محاولة لفهم الوجود المحيط بنا، وكذا وجودنا وواقعنا الذاتي، فنحن نستعمل اللّغة لترجمة خبراتنا وتجاربنا، لكن ما يجب التأكيد عليه هو أن «اللغة لا تعكس الواقع فحسب، بل تساعد على تشكيله أيضا (...) فاللّغة تعمل بنوع من التحويل من شكل من أشكال الواقع إلى شكل آخر، وهي بذلك مجازية أساسيا».¹⁹

أما الفكرة الثانية، أي فكرة العلاقة التبعية، فيرى "دريدا" أنّها تركز على تلك المقولة الفلسفية القائمة على افتراض تقابل بين الطبيعة والثقافة، والتي تضع الثقافة دائما في خانة المكمل للطبيعة، وأحيانا تكون مهددا لها ولا استمرار وجودها عن طريق إمكانية الاستخلاف والحلول محلّها. فوضع الكلام في خانة الطبيعة التي تحوي القطب المبدّل في بنية الثنائية (الطبيعة/ الثقافة)، وكانت الكتابة منتمية إلى خانة الثقافة، ليتأرجح حضورها بين الرّفص والقبول المشروط بالتبعية في أحسن الأحوال. لكن حسب دريدا فإنّه «ليست هناك طبيعة مكثفية بذاتها غير مكملّة، بل أن الطبيعة دوّمًا، وبشكل مسبق كيان مكمل».²⁰

والفكر الغربي الذي تحكمه مجموعة من الثنائيات الميتافيزيقية والفلسفية، يفترض دائما سلما تراتبيا بين أطراف (طرفي) الثنائيات (الثنائية)؛ عن طريق تبجيل طرف على الآخر، وكذلك فلسفة اللغة. لكن إذا اعتبرنا الكتابة ممثلا للكلام، سنفترض أن الكتابة دالا لمدلول هو "الكلام"، وتصبح العلاقة التراتبية لا مصوغ لها؛ لأنّ "سوسير" أقرّ مسبقا أن الدال والمدلول كوجهي الورقة النقدية الواحدة، ومع ذلك فعنده أن «اللغة والكلام نظامان متممازان السمة والعلة الوحيدة لوجود الآخر إنما هي من أجل تمثيل الأول».²¹ الكتابة تمثل الكلام، كما تمثل الصورة الصوتية (الدال) المفهوم (المدلول)، ومع ذلك تعطى الأسبقية للكلام على حساب الكتابة. والعلة الوحيدة لدى "سوسير" هي أنّ الكتابة لا تمثل تماما الأصوات المنطوقة؛ يمكن القول إذن أنّ هذا معناه ضياع الحقيقة/ المعنى. إنّها ميتافيزيقيا الحضور المتمركزة حول الصوت (phono centrisme)، وهو ما يرفضه "دريدا" بشدة، إذ يرى أن أصل الكتابة هو نفسه أصل اللغة،

والفصل (بينهما) بين هاتين المسألتين أمر عسير»²²، بل إنّ الكتابة تتجلى سابقة عن اللغة، ومتجاوزة لها، بل استمرار اللغة وإمكانية الدلالة متعلق بالكتابة؛ «فالعلامة المكتوبة تتميز (حسبه) بالخصائص الآتية: بوصفها علامة مكتوبة يمكن أن تتكرر رغم غياب سياقها، وإنّما ثانياً قادرة على تحطيم سياقها الحقيقي، وتقرأ ضمن أنظمة سياقات جديدة بوصفها علامة في خطابات، وإنّما ثالثاً تكون فضاء للمعنى بوجهين، الأول قابليتها الانتقال إلى سلسلة جديدة من العلامات، والثاني قدرتها على الانتقال من مرجع حاصر إلى آخر، وهذه سمات خاصة بالكتابة لا يمكن للكلام أن يمتلكها».²³

4.3 القراءة:

إنّ حديثنا عن "القراءة" في الإستراتيجية التفكيكية ينطلق ويرتكز على تجليات أخرى لمفاهيم جديدة متعلّقة باللغة النص والدلالة، وقبل ذلك نشير إلى بعض الاستبدالات الواقعة، حيث استبدل "العمل الأدبي" بمفهوم النص، وحلّ مفهوم "الكتابة" محلّ كلمة "إبداع". «اللغة عند "هيدجر" هي "بيت الوجود"، وأما "دريدا" فلا يرى الوجود إلا من خلال اللغة (...)، فاللغة هي التي تنشئ مفاهيمنا عن العالم، وهي التي تضع الفلسفة والعلم، والميثافيزيقيا (نحن نفكر بالعلامات فقط) (...)»²⁴، النص هو كل ما يلفظ باللغة (...) واللغة الأدبية (...) استشرافية بطبعها لأنّها لا تعرف اختزال المعنى، إنّما توسّع وتضيق في الوقت نفسه التفاوت بين الرّمز والفكرة، بين العلامة المكتوبة والمعنى المحدد (...) (و) النص الأدبي (...) يتخلّق ضمن أفقه الخاص وينسج وجوده بحركته المحورية حول الألفاظ، أي حول الدالات التي يجري عليها تخضيب ذاتي، فتتوالد بفعل الكتابة مثل تيار متدفق، فينتج الدال دالا آخر في لعبة متواصلة لا نهائية دون أن يتيح سبل الدالات لمدلول ما أن يفرض حضوره، أي أن يتعالى».²⁵

والنتيجة من كل هذا هي "لا نهائية الدلالة" واستحالة المعنى، انتفاء القصدية والإحالة الخارجية (موت المؤلف/ انتفاء المرجع) (السلطة الخارجية) (لا شيء خارج النص). يقول "دريدا": «لا نستطيع شرعياً الخروج عن النص في اتجاه أي شيء آخر، في اتجاه مرجع أو مدلول خارج النص، ما تستطيع اللغة أن تشير إليه خارج النص هو لغة النصوص الأخرى». والدال لا يشير إلى مدلول بعينه*، بل إلى جملة من الدوال التي تشير بدورها إلى دوال أخرى؛ أي هناك فجوة بين الدال والمدلول، وهذه الفجوة هي الفضاء المفتوح للعب الحر للمدلولات، بل هي "الحاجز الذي يقاوم الدلالة"، أو كما يذهب إلى ذلك "لاكان": «إنّ ما يحدث في ظلّ تلك الفجوة والمدلولات المراوغة أن المدلول نفسه لا يكتسب دلالة إلا إذا أحلناه إلى مدلول آخر، وهكذا يصبح المدلول الأوّل دالاً، ويحدث نفس الشيء مع المدلول الثاني (...)» ويترتب على ذلك إغلاق للنسق اللغوي خاص به، إذ يتحول النسق اللغوي للعلامات إلى دائرة نسقية مغلقة من الدلالات اللانهائية التي تشير إلى نفسها فقط».²⁶

إذن، النص يشير إلى نصوص أخرى، واللغة كذلك. إنه "التناس" أو "البنائية" (Intertextuality) في أعقد صورته؛ حيث أن النص في نظر التفكيك يحمل رماداً ثقافياً يحيل على كل ما تمت كتابته وإنجازه إبداعياً وفكرياً، إنه حامل لشظايا التجارب السابقة وربما اللاحقة كذلك (التأجيل)، بل إن اللغة تصبح لغة تناسية، فكل كلمة في النص محملة بآثار استخداماتها السابقة (تاريخ)، وهو ما يجعل مفهوم "القراءة" التقليدي الذي يسعى إلى شرح النص من أجل اقتناص معناه والقبض على الدلالة ضرب من العبث، بل إنه يتلاشى وينزاح كلية في ظل هذه الأفكار التفكيكية الثورية. فما القراءة إذا في نظر التفكيك؟

إن مهمة القارئ في نظر التفكيك ليست مطاردة المعنى، وإنما «تقليب النص حتى يتحرك ما في القاع وتطفو، الترسبات الثقافية المختلفة إلى السطح».²⁷

إذا على القارئ أن يكون واعياً بلعبة التعدد هاته، وأن يسعى في فك حبالها الملتفة الكثيرة العقد. ولما كانت تلك العلائق التي يقيمها النص تمتد في التاريخ الثقافي، وكان النص كيانه غير مكتمل ينتظم في ظل تشكلاته السابقة، ويحلم بتلك التي لم تتحقق بعد، تلك التي سيرسمها القراء والمبدعين من بعد، يغدو النص من منظور التفكيك نسيج لا يعرف بداية ولا نهاية. وتكون كل قراءة صحيحة وخاطئة في آن واحد، كل قراءة هي "إساءة قراءة"، كل قراءة صحيحة إلى أن تأتي قراءة أخرى تفككها.

خاتمة:

يصدر "دريدا" في فلسفته التفكيكية عن مشارب متعددة، أهمها: فلسفة الشك عند "نيتشه"، والتحليل النفسي عند "سيغموند فرويد"، وهيرمينوطيقا "هايدجر"، كما أخذ عن السيميائية ونظرية التلقي؛ بل إنه أعاد تفحص وقراءة المنظومة الفكرية الغربية جملة، قراءة ناقدة، ليعيد طرح العديد من التساؤلات التي طرّف الفكر الغربي أنّه قد تجاوزها أو فصل فيها، كمفهوم الحقيقة، والعلاقة بين اللغة والفكر، ووظيفة الكتابة وغيرها...

ترتكز الإستراتيجية التفكيكية على عملية الحفر في طبقات الفكر الغربي، والبحث عن البؤر المركزية التي تنبني عليها تلك الخطابات والنظم الفكرية، ثمّ الكشف عن التناقضات الموجودة داخلها، والتي تشكّل نقاط الضعف فيها. وهكذا تتم مهاجمتها وتفكيكها من الداخل، والهدف من هذا كله هو هدم "متعاليات" الفكر الغربي، وتحريره من سكونيته.

تمتدّ حفريات "جاك دريدا" لتكتسح جسد اللغة أيضا، وتعيد فتح أسئلة المعنى من جديد، وتحرير الدلالة من بوثقة الغلق الذي فرضه عليه التّموذج البنيوي؛ لكنّه فتح لا يروم تقديم أجوبة محدّدة أو نهائية، بقدر ما يثير الأسئلة، ويفعلها من جديد !

وهكذا تبرز مقولات "الاختلاف و/ التأجيل" و"الأثر" لتهدم مقولة "ثبات المعنى"، أو اعتبار المعنى "حضورا تاما" وممتلئا. وتهدم مقولة "الكلم مركزية (مركزية اللّوغوس) سلطة المرجع في الفكر الغربي، أو "ميثافيزيقيا الحضور"، والتي مفادها أن الحقيقة (المعنى) موجودة هنا/ الآن.

يعيد "دريدا" -إذن- وانطلاقا من الطروحات السابقة، صياغة مرتكزات النظرية الأدبية و/ النقدية الغربية المعاصرة، حيث استبدل بمفهوم "العمل الأدبي" مفهوم "النص"، وحلّت "الكتابة" محلّ "الإبداع"، أمّا القراءة عنده فهي تنأى عن كلّ محاولة للشرح والإمساك بالمعنى؛ بل إنّ وظيفتها تنحصر في تحريك النص، من أجل خلخلة وتقليب الترسبات الثقافية التي تركزت في القعر، وجعلها تطفو على السطح، وهكذا تتكشف العلاقات البينية التي يقيمها النص مع نصوص أخرى سابقة عنه وحتى لاحقة.

28

الإحالات و الهوامش :

¹ - سعيد الغوامي، عبد الله إبراهيم، عواد علي: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، ط2، 1996، ص 21.

² عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، منشورات عالم المعرفة، 1978، ص 300.

³ المرجع السابق، ص 34.

⁴ المرجع السابق، ص 36.

⁵ Le petite ROBERT de la longue Français 2006 : texte Remanie et amplifié sous la direction de JOSETTE REY, DEBOVE et ALAIN REY , Paris, 2006.

⁶ سعيد الغوامي، ع الله إبراهيم، عواد علي: معرفة الآخر: مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص 114.

* نقول استراتيجية وليس منهجا، لأن المنهج يفترض وجود قاعدة نظرية واضحة، وثبت مصطلحاتي خاص، ثم منهجية واضحة في التحليل تتوسل مجموعة من الآليات الإجرائية المبينة سلفا، وهو ما يغيب في التفكيك: رغم حيازته لثبت أو مجموعة مصطلحات خاصة، والتي تبدو بدورها مستعصية على التحديد من مثل الكتابة، والاختلاف، حتى أن دريدا نفسه يتجنّب إطلاق لفظة مفهوم عليها لأن ذلك يفترض حسبه وجود نوع من النظام والقيّد أو السلطة، وهو ما يتعارض وطروحاته الفكرية، والقرائية، ومن جهة أخرى نلمح تعدد الأ..... النظري، وتشبته داخل المنظومة الفكرية الغربية، أو فلنستعمل مصطلح دريدا نفسه، فنقول انشطاره وتشظيه "فتظهر النظرية من كل مكان في آن، وبذلك تحمل معها دليل عموميتها، والبرهان على أنها ليست وليدة بنية إدراكية معينة". انظر: في معرفة الآخر، مرجع مذكر سابقا، ص 162.

⁷ المرجع نفسه، ص 127.

* لأنه على رغم التطور الكبير والكلم الهائل من النظريات التي أفرزتها الحركية الفكرية/النقدية الأوروبية، إلا أنها في رأيه كانت ومازالت تقتات على إفرازات الفكر الأفلاطوني والأرسطي، ومقولاته العليا.

⁸ ينظر: سعد الغولمي وآخران، في معرفة الآخر، ص 162.

⁹ ينظر: المرجع نفسه، ص 117.

- ¹⁰ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، ص 377.
- ¹¹ حسب الترجمة الواردة في كتاب "معرفة الآخر"، ينظر: ص 123.
- ¹² عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، ص 379.
- ¹³ مادان ساروب، دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، ت: خميسي بوغراة، ص 51.
- ¹⁴ سعيد الغوامي، ع الله إبراهيم، عواد علي، معرفة الآخر، ص 125.
- ¹⁵ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، ص 381.
- ¹⁶ مادان ساروب، دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، ت: خميسي بوغراة، ص 49.
- ^{*} Phono centrisme ، وهو مصطلح الذي نخته دريدا من مصطلح Logo centrisme.
- ¹⁷ مادان ساروب، دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية...، ص 85.
- ^{**} لأن الكتابة التي عني بها أفلاطون ومن لفّ لفّه من الفلاسفة والمفكرين في الحقيقة هي الكتاب الأدبية .
- ¹⁸ المرجع السابق، ص 70.
- ¹⁹ المرجع نفسه، م ص.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص 57.
- ²¹ عبد الملك مرتاض، في نظرية القراءة، د ط / 2003، دار الغرب، وهران/الجزائر، ص 85.
- ²² المرجع نفسه، م ص.
- ²³ سعيد الغوامي، عبد الله إبراهيم، علي عواد، معرفة الآخر، ص 136.
- ²⁴ المرجع السابق، ص 139.
- ²⁵ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، ص 348.
- ^{*} كسر منطق العلاقة بين شطري العلامة اللغوية عند سوسير، والتي تقوم على افتراض التلازم التام بين الدال والمدلول (وحدة العلامة).
- ²⁶ المرجع نفسه، ص 347.
- ²⁷ المرجع السابق، ص 373.